قصص الملونة

الطائر المتكلم



دار الشرق العربي

بيروت - شارع سورية - بناية درويش

الطائرُ المتكلِّم

يُحكى أنْ ثلاثَ شقيقاتٍ فقيراتٍ كُنَّ يَسْكُنَّ وحيداتٍ في بيتٍ مُتواضعٍ ، كانتْ صُغراهُنَّ فائقةَ الجمالِ ، وكانَ جمالُها هذا سبباً في نِقْمةِ أُختيها عليها .

ذاتَ صباحٍ ، والأَخَواتُ الثلاثُ وراءَ النافذةِ يتجاذَبْنَ أطرافَ الحديثِ ، قالتِ الصُّغرى :

— أمْسِ مساءً ، دخلَ غُرفتي طائرٌ رائعُ الجمالِ ، وقال لي:

— ستُصبحين ملكةً وتُنجبين ثلاثةَ أطفالٍ ، صبيّين وبنتاً لها علامةٌ فارقةٌ ، نجمةٌ ذهبيةٌ تُرَصِّعُ جبينَها » .

أَكَلتِ الغيرةُ قلبَ الأُختين ، فَسَخِرتا منها قائلَتَيْنِ : أَضْغاثُ أحلام !

تحتَ النافذةِ المفتوحةِ ، كانَ يقفُ الملكُ الشابُّ ، بعدَ أنْ أنهى جَولةً في تلكَ المِنْطقةِ ، أخذ يُنْصِتُ إلى الحديثِ ، وما لبثَ أنْ قرعَ البابَ ..



فَتحتِ الأُختُ الصُّغرى البابَ ، واستقبلتْهُ بأدبٍ جمٍّ .

أُعجِبَ الملكُ بجمالها وأدبها ، فطلبَ منها ان تقبلَ الزواجَ منهُ ، ترددتْ وأجابتهُ إنّها فتاةٌ فقيرةٌ ، لا تُناسب مقامَهُ الرفيعَ زادهُ تواضُعُها إعجاباً بها ، فألحَّ في الطلبِ ، وسمحَ بمرافقةِ اختيها لها .



عَمَّتِ الاحتفالاتُ أرجاءَ المملكةِ الواسعةِ احتفالاً بزواجِ مليكِها .

وانقضى عامٌ حافلٌ بالسعادةِ ، ولكنْ ، قبلَ أنْ تَضَعَ الملكةُ مولودَها الاولَ ، نَشِبتِ الحربُ ، فغادرَ الملكُ قصرَه ، بعدَ أنْ أَوْصى شقيقتَيِ الملكةِ بالعنايةِ بأُختِهما وبالمولودِ ، فوعدتاهُ خيراً .

إلا أنَّ الأُختينِ الحاسدتينِ ، عَزَلتا الملكةَ عن أهلِ القصرِ وعندما حانَ وقتُ الوضعِ ، دَسَّتا لها شَرَاباً مُنَوِّماً ..

أنجبتِ الملكةُ طفلاً جميلاً ، حملتهُ الأُختانِ ليلاً خارجَ القصرِ إلى كُوخِ حَطّابٍ فقيرٍ في أطرافِ غابةٍ نائيةٍ ، وقد مَنَحتا الحطّابَ مالاً وحذّرتاهُ من إفْشاءِ السّرِ .

استيقظتِ الملكةُ من سُباتِها العميقِ ، وما أقسَى صَدْمَتَها عندما وجَدَتْ كلباً صغيراً ينامُ في السريرِ الذي أعَدَّتْهُ لوليدِها .

وبدتْ عليها علاماتُ الأسى . فقالتْ لها الاختانِ :

— أنتِ مُتكبرةٌ مغرورةٌ ، وها قَدْ عاقبَكِ اللهُ فأرسلَ لكِ جَرْواً بدلاً من الطفلِ ..

عاد الملكُ من الحربِ ، وعندما أُنبِئَ بالخبرِ حَزِنَ ، ولكنهُ كتمَ حُزْنَه حُباً بزوجتِهِ ، وأَمَرَ بالعنايةِ بالكلبِ الصغيرِ الذي كان يقفزُ حولَه في كلِّ مكانٍ .

وحملتِ الملكةُ ثانيةً ، واشتعلتْ ايضاً نيرانُ الحربِ ، وغادر الملكُ مَقَرَّهُ مُتشائماً . وتكرّرَ الأمرُ ، فقامتِ الأُختان بتخديرِ الملكةِ ، واستبدلتا المولودَ الثانيَ بكلب صغير ، ونقلتا الطفلَ إلى كُوخِ الحَطّاب ، وهددتاهُ بأقسى العقُوباتِ إذا أفْشَى السرَّ .

وعادَ الملكُ من الحربِ ، وتأثرَ عندما عرفَ أنَّ مولوده الثاني كانَ جَرْواً . وبدأَ الناس يتهامسونَ :

— لمْ تَلِدُ الملكةُ الكلابَ بدلاً من الأولادِ الطبيعيين ، هذا سِحْر ، والملكةُ ساحرةٌ ولا بُدَّ من حَرْقِها حَيّةً ..

ونشبتِ الحربُ للمرةِ الثالثةِ ، وكانتْ الملكةُ حاملاً ، ولدى عودةِ الملكِ ، وجدَ في سريرِ المولودِ قطةً صغيرةً ، فقد كرّرتِ الأُختانِ ما سَبَقَ أنْ فَعَلتاهُ ، وأخذَتا الطفلةَ الجميلةَ التي تُرصِّعُ جبينَها نجمةٌ ذهبيةٌ الى كُوخِ الحطّابِ الفقيرِ ..

لم يَعُد الملكُ يُطيقُ صبراً ، وضَجَّ الناسُ في أرْجاءِ المملكةِ يُريدونَ الخلاصَ من حالةِ السحرِ هذه ، ويُطالبون بوليٍّ للعهدِ ..

اضطرَّ الملكُ إلى نَفْيِ الملكةِ ، حتى لا تقعَ عليها عيناهُ إلى الابدِ ..

ومرّتِ الاعوامُ ، وسمعتِ الملكةُ بوجودِ رَجُلٍ حكيمٍ يجدُ حلاً لِمُشْكلاتِ النّاسِ .



ذهبتْ اليهِ وروتْ له قصتَها . فقالَ لها :

– في أقاصي المملكةِ ، وعَبْرَ بَحْرِ الحجرِ ، وغابةِ الصنوبرِ الكبيرةِ يوُجد الطائرُ المتُكلّمُ ، وهو وحدَه القادرُ على مُساعدتِكِ .

ثم أعطاها كُرةً بداخلها مُؤشّرٌ ذهبيٌّ يتحركُ باتجاهِ الطائرِ المتكلمِ وبحرِ الحجرِ . ووَجَّهَ إليها النصيحةَ التاليةَ :



– يا ابنتي ، عندما تَعبُرِينَ بحرَ الحجرِ ، لا تلتفِتي إلى أيِ اتجاهٍ ، مهما سمعتِ من أصواتٍ ، سيري دائماً باتجاهِ المُؤشّرِ ، إذا خالفتِ نصيحتي هذه ، فانكِ ستتحولين فوْراً الى تمثالٍ حَجَري . .

سارتِ الملكةُ وقطتُها وَفقاً لتوْجيهِ المُؤشّرِ النهبيِ ، وعندما بدأتْ تعبرُ بحرَ الحجرِ ، ترامتْ إليها اصواتٌ كثيرةٌ مُتداخلةٌ ، تتحدثُ وتضحكُ وتَبكي ، فزعتِ القطةُ وقفزتْ تُريد الهربَ. وعندما استدارتِ الملكةُ لتُمسِكَ بها تحولتْ فوْراً الى تمثالٍ حجريٍ .

في تلك الاثناءِ ، بلغَ أولادُ الملكةِ مرحلةَ الشبابِ ، وماتتْ زوجةُ الحطّابِ ، وأحسَّ الحطابُ بدنوّ أَجَلِهِ فاستدعاهم اليه وقال لهم :

– يا أحبائي ، أنتم تظُنُّونَ أنني والدُكم ، والحقيقةُ هي أن سيدتينِ أحضَرتا كم إلينا – فَوْرَ ولادتكم – وقمتُ وزوجتي بتربيتكم ، أنا لا أعرفُ من أنتم ومن أهلُكم ؟ . . وإن كنتُ أُرجّحُ أنكم أخوةٌ ابحثوا عن الحقيقةِ ، واسألوا الرجلَ الحكيمَ فهو يُرشدُكم ..

ماتَ الحطّابُ ، فحزنَ الإخوةُ على موتِهِ ، وغادروا الكوخَ

إلى حيثُ يسكنُ الرجلُ الحكيمُ ، الذي أعطى كلاً منهم كُرةً ذاتَ مُؤشرٍ ذهبيٍ ، مُعيداً على أسماعِهم تحذيرَه بعدمِ الالتفاتِ في بحرِ الحَجَرِ ، وأوصاهم بأن يَعبُروا البحرَ كُلاً بِمُفْرَدِهِ ، وتمنّى لهم حظاً سعيداً ..

سار الاخوةُ معاً حتى وصلوا بحرَ الحجر ، يَتَقَدَّمُهم الأخُ الاكبرُ ، عندما اقتربَ من غابة الصنوبرِ بحثاً عن الطائرِ المتكلم سمعَ فُجْأَةً أصواتاً كثيرةً فمضى غيرَ آبهٍ بها ، واذا بصوتٍ يناديه:

— أيها الشابُ ، سِرْ في هذا الاتجاهِ ..

التفتَ ليرى صاحبَ الصوتِ ، فإذا به ينقلبُ تِمثالاً حَجَرياً

وانتظرَ الأخُ والأختُ عودتَه دونَ طائل ، فدخلَ الأخُ الأصغرُ بحرَ الحجرِ مُتّجِهاً إلى الغابةِ بحثاً عن أخيهِ ، وما كادَ يعبُرها حتى دَهمتْه الأصواتُ ، التفتَ إليها فتحوّلَ إلى تمثالٍ حَجَريٍ .

أحستِ الأختُ أنّ الحظّ لم يُحالِفْ أخَوَيْها ، فهَمّتْ في السيرِ في بَحْرِ الحجرِ ، وعندما بدأتِ الأصواتُ تُناديها ، جَدَّتْ في السيرِ مُوَجِّهَةً كُلَّ اهتمامِها إلى المُؤَشّرِ الذهبيِ ، أخذتْ أصواتُ أخويها تُناديها :

— يا أختَنا الحبيبةَ تعاليْ فنحنُ هنا ..

ولكنّها سارتْ نحوَ الغابةِ مُنفِّذةً نصيحةَ الرجلِ الحكيمِ ،
واذا بها تُبْصِرُ أمامَها طائراً رائعَ الجمالِ ، مَدّتْ يَدَيْها إليهِ بلَهْفةٍ
وحكتْ له قِصّتَها فقال لها :

— املئي القربةَ التي تحملينَ ، من هذا البئرِ ، بماءِ الحياةِ
وضَعي نُقطةَ ماءٍ على كُلِّ تمثالٍ في بحرِ الحجرِ .



ملأتِ الفتاةُ القربة بماءِ البئرِ ، ونفَذَتْ طَلَبَ الطائرِ فإذا بالحياةِ تدبُّ في هذهِ التماثيلِ ، وإذا بالغابَة تعجُّ بالرجالِ والنساءِ والفُرسانِ ، كلُّهم كانوا قد قَصَدوا بحرَ الحجرِ بُغيةَ حَلِّ مُشكلاتِهم وعادتِ الحياةُ الى الأخوين ، وبكى الإِخوةُ الثلاثةُ فَرَحاً بخلاصهم . .

قريباً منهم كانتْ تَقِفُ سيدةٌ جميلةٌ حزينةٌ ، ومَعَها قِطَّتُها كانتْ تنظرُ إليهم بلهفةٍ ثم فَجْأَةً عرفَتْهم : إنهم أولادُها . والدليلُ على ذلك هو النجمةُ الذهبيةُ التي تُرَصِّعُ جبينَ ابنتِها .



استغربَ الثلاثةُ أمرَ هذه المرأةِ، وإذا بالطائرِ المتكلّمِ يقتربُ منها قائلا: نعم انهم أولادُكِ، ضمّتهمُ الأمُ الى صدرها بشوقٍ وراحوا يُحدّثونها عن طفولتهم وعن الحطّابِ الفقيرِ وزوجتهِ الطيبةِ.

وتجمّعَ الفرسانُ حولَ الأمّ وأولادِها، وكانَ بعضُهم قد سمعَ بقصةِ الملكةِ التي أُرْسِلَتْ إلى المنفى لأنها تَلِدُ كِلاباً وقِططاً، وتنادَوْا جميعاً للسيرِ الى القَصْرِ وإطْلاعِ الملكِ على الحقيقةِ..

كان الملكُ حزيناً، وظلتْ تُراوده ذِكرى زوجتِه التي أحبَّ ويُعذّبُهُ شعُورٌ بأنها كانتْ ضحيةَ ظُلمٍ لا يَعْرِفُ حقيقتَه. ماتَ الكلبانِ اللذانِ كان يظنّهما ولديهِ وانتهتِ الحروبُ، وكانَ الحكماءُ والوزراءُ ينصحونَه بالزواجِ ليُنجبَ ولياً للعهدِ، أما الاختانِ فكانتا تُحيطانِ الملكَ بالرعايةِ والمحبةِ، طمعاً في الزّواجِ منه، وتحتَ إلحاحِ الحكماءِ خطبَ الملكُ الأختَ الكُبرى..

يومُ الزفافِ قُرعتِ الأجراسُ وأُقيمتِ الزيناتُ وسارُ الموكِبُ تتقدّمهُ عربةُ الملكُ. ولكنّ الناسَ فُوجئوا بقافلةٍ كبيرةٍ من الفرسانِ على رأسِها الملكةُ وأولادُها الثلاثةُ.

أوقفَ الملكُ عربتَه فإذا به وجهاً لوجه أمامَ زوجتِهِ التي كان يعتقدُ أنها في عدادِ الأمواتِ. اقتربتْ منه مُبتسمةً وأشارتْ الى أولادِها الثلاثةِ قائلةً: هؤلاء هم أولادُكَ..

لم يُدركِ الملكُ معنى قولِها ، واذ بالطائرِ المتكلّم ، يطيرُ حولَهُ ويقصُّ عليهِ قصةَ أولادهِ وما قامتْ بهِ الأُختانِ الحاقدتانِ .

سألهما عن الحقيقةِ فحاولتا الانـكارَ ولكنّهما اضطرتا أخيراً الى الاعترافِ .

أمرَ الملكُ بنفيِهما الى بَحْرِ الحجرِ ، حتى تلقى كلُّ واحدةٍ منهما جزاءَ ما جَنَتْ يداها .

ولكنَّ الملكةَ ركعتْ أمامَه تَسْتَعْطِفُهُ :

— يا زوجي الحبيبَ ، أترفض لي طَلَباً بعد هـذا الفراقِ الطويل .. أجابها الملكَ :

لك ما تشائين يا مليكتي ، إنما أرجو غُفرانَك عمّا سَبَّبَتُ لكِ من آلامٍ .

قالتِ الملكةُ :

— أُسامِحُكَ من كلِّ قلبي ، فلقد أصابَكَ من الظُّلمِ ما أصابني ولكنْ أرجو أن تَصْفَحَ عن أُخْتَيَّ فهما كلُّ ما بقيَ لي ذكرى من والديَّ الحبيبينِ ..

قال الملك :

لك ما تُريدينَ . إنك كما عرفُتك دائماً ، الإِنسانةُ الطيبةُ المتسامحةُ .. وضمّها الى صدرِه بشوقٍ وحَنانٍ .



أُقيمت الاحتفالاتُ في المملكةِ ابتهاجاً بعودةِ الملكةِ وأولادِها . وبعد فترةٍ انضمّ الأميرانِ إلى سِلاحِ الفُرسانِ .

أما الأميرةُ ذاتُ النجمةِ الذهبيـةِ فقـد تزوجَتْ من ملِكِ المملكةِ المجُاورةِ وبذلكَ سادَ السلامُ المملكتينِ .

والطائرُ المتكلم ؟ ..

لقد حلّقَ في أرجاءِ العالمِ الواسعِ ، بجناحيهِ ، منُـذُ ذلك الحينِ ، لمْ تقعْ عليه عينُ إنسانٍ .